

الله وبئة في الطبر العربي

د. سلمان قطاية

عرف العرب الأوبئة منذ قديم الزمان .
ويقول في ذلك لوسيان لوكليز^(١) « ثمة حادث هام يجب ذكره ، وهو يعود الى ما قبل الاسلام . وهو ظهور أول جذري ... »
حوالي ٥٧٠ ، أراد أمير مسيحي من اليمن ، وهو ضابط في جيش النجاشي يدعى أبرهة ، أن يجعل من صنعاء ، مدينته ، مكة أخرى ، أي مركزاً للحج وذلك في صالح المسيحية . لذا كان عليه أن يهز أركان عبادة الأوثان عند العرب بقوة . ومن أركانها : الحج الى مكة .
ولتحقيق غايته بنى أبرهة كنيسة رائعة .
وكان لأهل قريش حق حماية الكعبة ، وهو سبب أهميتهم وثروتهم ، ففكروا في تخريب ذلك المشروع . فأرسلوا رجلاً من قبلهم استطاع أن يتسلم حراسة كنيسة صنعاء وفي مساء إحدى الحفلات الكبرى ، دخل الى المعبد ليلاً وسلح فيه ، ثم هرب بعدما أن أعلن عن فعلته .
فوجد أبرهة أن واجبه يقضي بالانتقام لهذا التدنيس . فجهز جيشه وذهب الى مكة وضرب عليها الحصار . وكان على ظهر فيل أبيض اسمه : محمود .
الا أن حادثة غير متوقعة أنزلت الاضطراب والفوضى في جيشه ، ورأى المكيون في تلك الهزيمة انتقاماً سماوياً . وقد وصف القرآن هذه الحادثة في سورة

الفيل اذ يقول : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

أرسل الله ، اذن ، ضد الحبشيين المدنسين ، الطيور الأبابيل ، يحمل كل منها ثلاثة حجارة واحدة في منقاره واثنتين في رجله . فألقته على الحبشيين فقتلتهم في الحال ما عدا أبرهه رئيسهم الذي هرب بسرعة الى الحبشة . وهناك بينما كان يقص الأمر على ملكه جاءه طير أخير فألقى عليه حجراً فسقط ميتاً .

ومن الطبيعي أن ينقب الباحثون عن الحادثة الطبيعية وراء هذه المعجزة . يعتقد الكاتب الايطالي رامبولدي ، أنه يمكن تقبل فكرة حدوث عواصف عنيفة أعمت جنود أبرهه .

ولكننا نعتقد ، مع أكثر من مستشرق ، أن الأقرب أن نرى في هذه المعجزة جائحة جدري ، خاصة أن هذا التفسير يتناسب مع شواهد تاريخية .

ان عام حصار مكة ، هو عام ولادة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد أطلق عليه بعض المؤرخين العرب عام الفيل . وتوجد وثائق تاريخية تفيد أن أول جائحة جدري حدثت عند العرب في ذلك التاريخ . « . »

ومهما يكن من أمر فالحادثة تشير الى حدوث جدري في ذلك التاريخ والى معرفة العرب له .

هذا وقد جاء في الكتب الطبية العربية ذكر مفصل للأوبئة مع ذكر أسبابها وعلاماتها ومعالجتها .

يقول مدين القوصوني المصري^(٢) « الوباء : هو الطاعون أو كل مرض عام . وقال حذاق الأطباء : هو تغير يعرض لجوهر الهواء فيستحيل الى الرداءة ، ويسري في الأبدان بالاستنشاق كسريان السم » .

أما أسباب الأوبئة فيجمعها علي بن رضوان^(٣) في أربعة :

١ - تغير كيفية الهواء : ويكون على نوعين : اما تغير معتاد فلا ضرر منه .

واما تغير خارج مجرى العادة كأن تزداد سخونته أو برودته أو رطوبته أو جفافه أو تخالطه حال عفية وقد تكون هذه قريبة أو بعيدة •

والمعلوم أن الهواء احدى الطرق لا تنقل الحشرات والهوام ومعها الجراثيم •

٢ - تغير كيفية الماء : أن يفرط زيادة أو نقصاناً ، أو « تخالطه حالة عفية » • فيضطر الناس الى شربه • ويفسرتعفن الماء اما بوجود قتللى تعفنت أجسادهم في الماء واما أن بعض الناس (كأهل فسطاط) يرمون بجثث قططهم وكلابهم وسنانيرهم في مجاري المياه التي يشربونها فتتعفن • وكلنا يعلم أن الماء هو احدى الطرق المعتادة لانتقال الجراثيم البوائية : كالكوليرا والحمى التيفية ، والزحار ...

٣ - كيفية تغير الأغذية : اذا غير الناس طعامهم كما يحدث في الأعياد • أو اذا فسدت المراعي فتفسد لحوم الحيوانات التي يأكلها الناس ، أو اذا فسد الماء الذي يشربه الحيوان •

وبديهي أن الأطعمة على اختلاف أنواعها هي احدى طرق نقل الجراثيم الى الانسان •

أما السبب الرابع فهو الأحداث النفسية لأن العرب كانوا يضعون الأمراض النفسية الجماعية من جملة الأوبئة •

ثم ان العدوى المباشرة من مريض الى آخر فيشرحها التميمي بالتفصيل في الباب الثالث من المقالة الثالثة من كتابه فيقول (٤) :

« ... وذلك لأجل أن الهواء يحتمل رائحة ذلك الفساد الذي يظهر من جسد العليل وينفصل عنه بالتنفس فيؤديه الى الصحيح المجاور له بالتنسم وحمل الهواء للفساد من نفس العليل وايصاله اياه الى الصحيح المجاور له انما هو بكثرة نفس العليل ، فاذا استنشق ذلك النفس الفاسد المنفصل منه نفس العليل ، من يجاور العليل من الأصحاء الذين يأوون معه ويقربون منه ، فسدت أمزجة أبدانهم ، وغلبت العفونة عليهم فأمرضتهم فشاركوا العليل في علته ... »

قال محمد بن أحمد : والدليل على صحة ذلك أنا نرى المنزل الذي فيه

الجماعة ممن لم يحصب أو يجدر قط اذا حدث بواحد منهم احدى هاتين العلتين لم تلبث تلك الجماعة الا اليسير حتى تنالهم تلك العلة بعينها اما واحداً بعد واحد ، واما لوقت واحد ، وليس السبب في ذلك سوى تنسّمهم ذلك الهواء الممازج لنفس الوصب .

وقد نجد كثيراً من العلل تعدي من ناقل العليل أو باشره أو واكله أو شاربه أو شرب من انائه الذي يشرب فيه أو ضاجعه في فراشه . فمن ذلك داء الأسد فانه يعدي من واكل المجذوم أو شاربه أو أكثر الدنو منه والمجالسة له . وكذلك الوَصَحُ أيضاً فانه من الأمراض المعدية التي تعدي من واكل الأبرص وشاربه وهذان الداءان ليس انما يعديان الأجنبي من الناس ممن يؤاكل من كانا به أو يشاربه لكنهما يجريان في النطفة ويتبعان النسل ويحدثان في ولد الولد بعد ثلاثة آباء أو أكثر . والسبب الموجب لذلك فساد النطفة الفاسدة المزاج وحلولها في الرحم وفي جوهرها نفس ذلك الفساد كامناً فيظهر في النسل بعد النمو والترعرع ومما يعدي منه العليل بقوة ، وقد بان لي إعداؤه مراراً ، علة ذات الرئة أعني قرحة الرئة المفضية بالمريض الى السل . وكذلك النسمة الكائنة عن السيّلان المنصب عن فضول الرأس فان الوصب قد يعدي بها من الأصحاء من شرب في انائه الذي يشرب فيه على الادمان ، والسبب في ذلك ما يقبله ذلك الاناء من نفس المريض ، ومما يمازج رطوبة الماء من البخار الخارج منه في العليل ومن منخريه ، فان أدمن الشارب الشرب من انائه تعدت تلك العلة اليه .

فأما الجرب فانه يعدي من استشعر أو لبس قميصه أو ضاجعه في فراش والسبب في ذلك أن جسد الصحيح يجتذب اليه من مسام جلده بالنفس الخارج من المسام والداخل فيها بمشاركة الهواء ما قد حصل في ذلك الشعار أو القميص من بخار جسد الوصب فيولد ذلك به جرباً في أسرع الأوقات .

ويؤكد ابن سينا^(٥) أن انتقال الأوبئة قد يكون « لسبب رياح ساقط الى الموضع الجيد أدخنة رديئة من مواضع نائية فيها بطائح آجنة ، أو أجسام متجيفة في ملاحم ، أو أوباء قتّالة ، لم تدفن ولم تحرق » .

ويذكر أن من علامات الوباء « أن ترى الفأر والحيوانات التي تسكن قعر الأرض تهرب الى ظاهر الأرض سدره مسمدة » .
والمعروف أن للفأر دوراً كبيراً في نقل الطاعون .

الجدري والحصبة

يقول القوصوني^(٦) في تعريف الحصبة « بثور حمراً متفرقة تكون عند ظهورها كقرص البراغيث ثم تتحبب ولا تتقيح ، سببها دم صفراوي حاد لداع مهياج يظهر سريعاً » .

يقول الرازي^(٧) « علامات الحصبة : أن يغلظ الصوت وتحمر العينان والوجنتان ، ويجد الوجع في الحنجرة والصدر ، ويجف اللسان ، وتنتفخ الأصداء ، ويحمر الجسد ، وتدمع العينان ، ويهيج التهوع ، فان رأيت هذه فانه ستظهر الحصبة ، والحصبة تخرج بمرة والجدري شيئاً بعد شيء . والحصبة الخضراء والبنفسجية رديئة وخاصة ان جاءت بغتة فانه يغشى عليه ، ويقتل سريعاً . والجدري الذي يسود لونه ويجف ولا يمتلىء بل يكون صلباً ثؤلولياً فانه يورث الغشي وهو قاتل » .

بل يذكر بعض الحالات التي عالجها فيقول^(٨) « ابنة الفتح كان جدريها صفاراً ثؤلولياً وكان معه ضيق نفس ، ولم يكن أسود وكان معه لهيب في البطن شديد فماتت ، وأكثر هؤلاء يموتون اذا غشي عليهم مرات واشتد ضيق النفس ، وبردت الأطراف ، وذلك يكون اذا انقلب بخار الجدري الى داخل ، ونرى الجدري يشبه الحصبة حتى أنه قال الطبيب : انه حصبة » .

وقال^(٩) مكرراً « خرج على مكين جدري كثير رديء ففصدناه قبل ضيق حلقه فلم يبق شيء من التطفئة الا فعلناه به ، فصلح وتوسع الحلق وأقبل من الجدري حتى رجوانه ، ثم انه هاج به ضربة وجع في ساقه عظيم جداً واسود ، وعزمت على أن أشرط في ذلك الموضع فسقطت قوته في ساعة . حتى لم أرجه البتة لكن على حال سال الدم من ساقه ، ومات من شدة الوجع في يوم واحد » .

ولا بد أنه أصيب بالتهاب الشرايين مع غنغرينة في الطرف السفلي وخمج دم فأودى به .

ويقول في التشخيص التفريقي^(٩) « ان أوجعتهم ظهورهم ولم يكن بهم شيء آخر من علامات الجدري البتة بل كان بعضهم به اسهال أيضاً وماؤه أبيض ، فجدرى أيضاً ، وبالجملّة فلا شيء أخص بالجدري من وجع الظهر مع الحمى . فان رأيت ذلك في الخريف ، فثق بأنه سيخرج جدرى دون الحصبة والحصبة لا يكون معها وجع الظهر . واحسب أن ذلك لشدة تمدد العرق الأجوف الممدود على فقار الصلب ، وفي الحصبة لا يتمدد لأنها من رداءة الدم بلا امتلاء كثير » .

ولقد اعترف الغرب بالاجماع في شأن الجدري والحصبة للعرب وللرازي بهذا الكشف العلمي القيم . وترجمت رسالة الرازي الى اللاتينية ودرّست في المعاهد .

ويقول القوصوني^(١٠) نقلاً عن الشيخ ابن سينا « قال الشيخ : وهي (الحصبة) كأنها جدرى صفراوي والفرق بينهما أن الحصبة صفراوية ، وانها أصغر حجماً ، وكأنها لا تتجاوز الجلد ، ولا لها سمك يُعتد به ، والجدرى له نتوء وسمك ، وهي أقل منه عدداً أو أقل تعرضاً للعين ، والتهوُّع ، والكرب فيها أكثر والاشتعال أشد ووجع الظهر فيها أقل لأنها تكون عن الدم القليل الفاسد ، وهو عن الكثير ، وهي في الأكثر تخرج دفعة ، وهو يخرج شيئاً بعد شيء وعلامات السالم منها كعلامات السالم منه فالسريع البروز والنضج سليم ، والصلب والأخضر والبنفسجي والذي يغيب دفعة ردىء ، والبطيء النضج مع تواتر الغشي والكرب قاتل » .

وكل هذا صحيح برمته .

الطاعون

يقول ابن سينا^(١١) في وصف الطاعون في الفصل المسمى «فصل في الطواعين»: هذا الورم القتال يعرض في أكثر الأمور في الأعضاء الضعيفة مثل الآباط ، والأربية ، وخلف الأذن ، ويكون أردوها ما يعرض في الآباط وخلف الأذن لقربها من الأعضاء التي هي أشد رئاسة . وأسلم الطواعين ما هو أحمر ثم الأصفر ثم الذي الى السواد لا يفلت منه أحد » ثم يضيف :

« كان مع ذلك ورماً حاراً قَتَّالاً . . . وربما رشح دماً وصديداً ونحوه ويؤدي كيفية رديئة الى القلب من طريق الشرايين فيحدث القيء والخفقان والغشي ، واذا اشتهرت عوارضه قتل » .

ويقول الرازي^(١١) في الحاوي « الطواعين ورم حار يعرض في الأربيات والابط ، ويقتل في أربعة أيام أو في خمسة . والطاعون الرديء أسود ، والطاعون الأحمر أقل شراً على أنه ربما قتل ، ولا يكاد ينجو من الأسود والأخضر أحد » .

والمعلوم أن للطاعون شكلين : أحدهما عقدي وهو الذي وصفه ابن سينا والرازي وهو الأكثر تواتراً ، والثاني : رئوي ، وهو أندر وقد أشار اليه ابن خلدون^(١٢ مكر) فقال : « اذا فسد الهواء ، وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً ، فيسري الفساد الى مزاجه . فاذا كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة » .

وكان الطاعون من الأوبئة التي كانت تحصد الناس بالملايين خلال العصور الوسطى .

وذكر بلوتارك المؤرخ اليوناني ان أقدم طاعون هو الذي وقع في منتصف المائة السابعة قبل المسيح . وكان الطاعون يهاجم العالم من آن الى آخر فيحصد الآلاف بل الملايين من البشر ومن أشهر وافدات الطاعون في التاريخ هو الذي حدث في القرن السادس الميلادي ودام ٥٢ سنة (٥٤٢ - ٥٩٤ م) .

وأقدم طاعون في الاسلام ظهر أيام عمر بن الخطاب وقتل من الجملة أبو عبيدة بن الجراح . أما أروع وافدة فهي ما سمي بالموت الأسود وحدث في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي وقدر عدد الموتى بعشرات الملايين . ويبدو أنه ظهر في الصين عام ١٣٣٣ ، ثم انتقل الى الشرق الأوسط ثم الى أوربا كلها .

وقد ذكر الغزي في تاريخه ٢٠ وافدة انتابت حلب بين سنة ٦٥٦ هـ /

١٢٥٨ م وسنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٣ م وكان طاعون عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م (١) رهيباً ، وظل يفتك بالناس حتى في سورية عام ١٣٥١ م .

ولكنه انقطع في سورية حوالي عام ١٨٣٧ م ، انما ظل في مصر وانقطع سنة ١٨٤٤ م وكانت آخر وافدة عالمية هي عام ١٨٩٤ م الا أن العلم كان قد تقدم واكتشف أسباب الداء ووضع له مصلاً مضاداً وذلك على يد يرسان Yersin أحد تلامذة باستور . والوباء حالياً منحصر في بعض مناطق الهند ، اذ استطاع العلم الحديث أن يقضي عليه تقريباً كما قضى على الجدري وغيره من الأمراض السارية .

ومن أجود أوصاف وباء الطاعون ما ذكره عبداللطيف البغدادي (١٢) في كتابه « الافادة والاعتبار بأرض مصر » من أكل لحم الآدمي وغيره فيقول :
« ولو أخذنا نقتص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر ،
وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظاهره وانما هو شيء صادفناه اتفاقاً بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره . »

وأما من يتحين ذلك بدار الوالي فانه يجد منه أصنافاً تحضر مع آناء الليل والنهار وقد يوجد في قدر واحد اثنان وثلاثة وأكثر ووجد في بعض الأيام قدر فيها عشر أيد كما تطبخ أكارع الغنم ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الأطراف مطبوخاً بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الاحصاء .

وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع في حبالتهم شيخ كتبي بدين ممن يتبيعنا الكتب فافلت بجُرَيْعَة الذقن (١٣) . وكذلك بعض قوام جامع مصر وقع في حباله قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله

١ - يصفه الشيخ كامل الغزي في كتابه نهر الذهب بقوله : « فيها كان الفناء العظيم والطاعون العميم ، الذي جاز البلاد والأمصار ولم يسمع به في سالف الأعصار واخلى الديار والبيوت ووقع الناس في علة السكوت وكان اذا طعن به انسان لا يعيش اكثر من ساعة رملية ، واذا عاين ذلك ودع اصحابه واغلق حانوته وحفر قبره ومضى الى بيته ومات وقد بلغ عدد الموتى في حلب في اليوم الواحد نحو خمسمائة وبدمشق الى اكثر من الف ومات بالديار المصرية في يوم واحد نحو العشرين الفا وهكذا اورد الخبر واستمر نحو سنة وفني به العالم نحو ثلثيهم وفيه يقول ابن الوردي : قيل ان هذا الوباء ابتدا من الظلمات قبل وصوله الى حلب بخمسة عشر عاماً وهو سادس طاعون وقع في الاسلام وعنه قيل انه الموتان الذي انذر به عليه السلام » . الغزي ج ٣ ص ١٨٦ .

حصاص^(١٤) وأما من خرج من أهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير : وحكى لي من أثق به أنه اجتاز على امرأة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاذه ، فانكر عليها فزعمت أنه زوجها وكثيراً ما يدعي الأكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك . ورؤى مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت إنما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني ولأن أكله أنا خير من أن يأكله غيري .

وأشبه هذا كثير جداً حتى أنك لاتجد أحداً في ديار مصر الا وقد رأى شيئاً من ذلك حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهن .

ومما شاع أيضاً نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحومهم .

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد الا وقد أكل فيه الناس أكلاً ذريعاً من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي .

وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك . وأعجب ما حكى لي أنه عاين رؤس خمسة صفار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة . وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف فاني وان كنت قد أسهبت أعتقد أنني قد قصرت .

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولا سيما طريقي الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخسون الأجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم . وظفر الوالي منهم بجماعة فمَثَّلَ بهم ، وأقر بعضهم عندما أوجع ضرباً أن الذي خصه دون رفقاءه ستة آلاف دينار .

وأما موت الفقراء هزلاً وجوعاً فأمر لا يطيق علمه الا الله سبحانه وتعالى وانما نذكر منه كالأنموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر .

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشي أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هوفي السياق أو على جمع كثير بهذه الحال ، وكان يرفع عن القاهرة خاصة الى الميضاة كل يوم ما بين مائة الى خمس مائة ،

وأما مصر فليس لموتها عدد ويرمون ولا يوارون. ثم بأخرة عُجِزَ عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين وفيها والميت منهم قد تقطع والى جانبه الشواء والخباز ونحوه .

وأما الضواحي والقرى فإنه هلك أهلها قاطبة الا ما شاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الأمهات والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك ، ومع هذا أيضاً فلم يبق فيها الاتحلة القسم^(١٥) وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ويجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين ، بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيت أثاثه وليس له من يأخذ .

حدثني بذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضد به قول الآخر قال أحدهم دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيواناً في الأرض ولا في السماء فتخللنا البيوت فألفينا أهلها كما قال الله عز وجل « جعلناهم حصيداً خامدين » فتجد ساكن كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده . قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكر لنا انه كان فيه أربع مائة دكان للحياكة فوجدناها كالتى قبلها في الخراب ، وان الحائك في بير حياكته ميت وأهله موتى حوله ، فحضرني قوله تعالى « ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون » ، قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه كالذي قبله ليس به أنيس وهو مشحون بموتى أهله . قال : واحتجنا الى الإقامة به لأجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال : ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها .

ومن عجيب ما شاهدت أني كنت يوماً مشرفاً على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر . وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا أشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بانبأيش العنصل وخبرت عن صياد بفرضة تنيس أنه مر به في بعض نهار أربع مائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح . وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصدة ، وانه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان كلابهم التي صحبتهم من مجلاهم هي التي تأكل فيهم .

وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ، ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن ، وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا في البلاد كل ممزق .

وكثيراً ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضربون حتى يموتوا .

وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله ، حتى تباع الجارية الحسنة بدرهم معدودة ، وعرض عليّ جارتان مراهقتان بدينار واحد، ورأيت مرة أخرى جارتين احدهما بكر ينادى عليهما بأحد عشر درهماً .

وسألني امرأة أن أشتري ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرّفتها أن ذلك حرام فقالت خذها هدية . وكثيراً ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم الى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك .

وقد ألّفت كتب كثيرة في الطاعون، وخاصة في عصور الانحطاط حيث لم يعد يعرف الانسان كيف يفعل ليتدارك هذا الوباء .

ومن أشهر الكتب كتاب « بذل الماعون بفضل الطاعون » للعسقلاني الكناني . وهو قليل الفائدة الطبية .

يذكر فيه أن أفضع طاعون كان بمصر والشام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م ثم يصف الطاعون في حلب فيقول « وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج استرسل بعنانه أو انساب وسمي طاعون الانساب وهو أعظم طاعون وقع في الاسلام ، وعندني أنه الموت الذي أنذر به نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلو رأيت الأعيان وهم يطالعون في كتب الطب الغوامض ويكثرون في العلاج من أكل النواشف والحوامض ، قد تنفص عيشهم الهني ، بملاطخة مسلم الطينة الطين الأرمني ، وقد لطف كل منهم مزاجه وعدل ، وبغروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل ، وتختموا بالياقوت ، وجعلوا البصل والخل والطحينة من جملة

الادم والقوت وأقلوا من الأمراق والفاكهة ، وقربوا اليهم الأترج وما
شابهه :

حلب والله يكفي شرها أرض مشقه
أصبحت حية سوء تقتل الناس ببزقه

فلو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى ، وسمعت بكل قطر من حلب نعيًا
وصوتًا ، لوليت منهم فرارًا ، وأبيت فيهم قرارًا ، ولقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية
فلا رزقوا ، وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا ، فلا عاشوا ولا عرقوا ، فهم يلهون
ويلعبون ، ويتقاعدون على الزبون ، اسودت الشهباء في عيني من وهم وغش ،
كاد بنو نعش ، أن يلحقوا ببنت نعش ، فنستغفر الله من هوى النفوس فهذا
بعض عقابه ، ونعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقابه :

قالوا فساد الهوا يردي فقلت يردي هوى الفساد
كم سيئات وكم خطايا نادى علينا بها المنادي

ومما أغضب الاسلام ، وأوجب الآلام ، ان أهل سيس(*) الملاعين مسرورون
لبلائنا بالطواعين ، حتى كأنهم في أمان أو عليه أن لا يقربهم ضمان ، أو كأنهم
إذا ظفروا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا :

سكان سيس يسرهم ما ساءنا وكذا العوائد من عدو الدين
الله ينفذه اليهم عاجلا ليمزق الطاعون بالطاعون

وفي دار الأوقاف الاسلامية بحلب للكتب ، ستة مخطوطات عن الطاعون
معظمها إن لم نقل كلها مأخوذ عن هذا أي كتاب ابن حجر ، وهذا يدلنا على ما كان
للطاعون من رهبة وأهمية والواقع أنه داء رهيب ، ذقت منه حلب الأهوال
الشداد .

والمؤلف هو الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني الكناني
الشافعي ولد في القاهرة سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م ودرس بدمشق والحجاز
وبغداد والقاهرة وأصبح قاضي القضاة وتوفي سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م وله عشرات

* سيس مدينة في قليقية (آدنه) حاصرها العرب ٧٠٤ وكانت عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى (١١٨٦) فتحها
الماليك وخربوها (١٣٧٤) لها مقام ديني خطير عند الأرمن لأنه جرت فيها رسامة القديس غريغوريوس المنور أسقفا أول
بطاركتهم (٢٦٧) المنجد - الأب معلوف - ص ٢٧٧ .

الكتب في مختلف المواضيع والكتاب يعود الى عصور الانحطاط بعد أن انحسر الفكر العلمي وطفى الفكر اللا علمي الذي يعتمد على الروحانيات في شكلها الرديء وأقصد القريب من الشعوذة والسحر . وقد يكون العذر في ذلك هو العجز التام للطب في الوقوف في وجه الداء الرهيب .

ولم يكن الحال في أوروبا بأفضل . ويقول كنييث والكر^(١٦) في ذلك :
« ان ظهور الأوبئة وبشكل خاص الطاعون ، كان يُعزى الى أسباب الهية وتعني عقاب البشر بسبب ذنوبهم . »

ولقد سبب هذا الشعور الأليم بالذنب ، في أوروبا ، ظهور بدعات يمكن تصنيفها « بالهستيريا الجماعية »^(*) . وهكذا فكانت الكنائس تمتلئ بالمصلين وتسمع الصلوات الممزوجة الأنين والصرخات في كل مكان .

أما المتعصبين فقد كانوا يعاقبون أنفسهم بأنفسهم وعلانية ، ويشجعون الآخرين على ذلك . وانتشرت الهستيريا في كل مكان .

ووصل الأمر في هنغاريا أن أسست جمعيات لجلد المذنبين عرفت باسم « اخوة الصليب » فكانت ترسل الى كل أنحاء العالم مبشرين مرتدين ملابس خشنة ذات ألوان قاتمة ، مع صليب ضخمة أحمر على صدورهم . كان هؤلاء يحملون أسياطاً ذات ثلاث شعب تنتهي كل منها بكرة صغيرة من الحديد ، فكانوا يجتازون المدن ، رؤوسهم مغطاة بالقلنسوة ، وأعينهم تنظر الى أسفل . وكانوا يُستقبلون بقرع الأجراس . عندئذ يجتمع السكان في ساحة القرية أو المدينة ، لمشاهدة التعذيب . وكانت تقام هذه الحفلة مرتين في اليوم . وبعد أن يحصل المبشرون على عدد واف من المقتنعين بالطريقة ، يذهبون الى مدينة أخرى .

ولكن هذه الهستيريا كانت أحياناً تظهر بأشكال مغايرة ، على شكل رقصات تشنجية عصبية تسمى برقصه القديس جي Saint Guy ، أو القديس حنا وكانت تقام في الساحات العامة ، يشترك فيها بعض الراقصين فيصرخون

ويولولون ويبكون ويتشنجون حتى يسقطوا على الأرض من الانهاك .
ويشترك معهم الناس فيصبح الأمر عبارة عن تظاهرة جنونية جماعية علنية .
وهكذا مثلاً في عام ١٣٧٤ في مدينة ايكس لاشابيل اشترك مئات من النساء
والرجال في رقصة من هذا النوع ، فذهبوا بعد ذلك الى مدن أخرى .
وعندما وجدت الكنيسة أن الأمركاد أن يفلت من زمامها أمرت باقامة
حفلات منظمة لطرد الأرواح الشريرة من هؤلاء الذين تلبستهم » .

المعالجة

لعل أفضل كتاب وضع في العربية عن الأوبئة هو كتاب « مادة البقاء في
اصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء » ، للتيمي ويقول في المقدمة (٤) :

« فكان الأولى بالذين يتولون منهم علاج ملوكها وخاصة رؤسائها وعامة
أهلها أن تكون عنايتهم بمداواة الهواء الفاسد المحدث لوقوع الأوبئة بها الجالب
الطواعين على سكانها أولى وأوجب من عنايتهم بمداواة ما يتحصل بذلك من
الأمراض المخوفة في أجساد أهلها ، وأن يصرفوا همهم الى ذلك ، ويفرغوا له
نفوسهم » .

... ولم أر أحداً من المتقدمين منهم ولا من المتأخرين أمعن النظر في ذلك
وعني به أتم عناية حتى وضع له كتاباً ونصب له أمثاله من العلاجات فكان من
بعده يقتدي به ويسلك في ذلك محجته غير الفاضل أبقراط فانه وضع كتاب
الاهوية والبلدان والمياه .. وكذلك وجدته في وضعه الكتاب المسمى افيديميا
وما ذكر فيه من الأمراض الوافدة » .

الكتاب مؤلف من عشر مقالات ذكرنا نبذاً منها فيما سبق . ونسرد نبذاً
أخرى تتعلق بالمعالجة الوقائية والدوائية فيقول : (٤)

« فاسأل كافة الناس من ذوي الأسنان المختلفة الأزواج المتغايرة عند فساد
الهواء ، وتنسم الطواعين ، والأمراض الوافدة في الناس أن يتجنبوا دخول
الحمامات وأن يهجروها مدة ذلك الفساد ... أما ذوو النعمة من الملوك والرؤساء
وذوو الثروة واتساع الحال ممن له حمام ملاصق لمنزله أو بالقرب منه ...
فليدخلها ولا يطل المكث فيها » .

ويشدد على أهمية النار كأداة للتعقيم والتطهير فيقول: (٤)

« قال محمد بن أحمد : اني نظرت في حال العناصر الأربعة فلم أجد عنصراً منها له سلطان على الهواء والماء وعلى العنصر الثالث أعني الأرض وما ينشأ فيها ، ويعيش على ظهرها من الحيوان غير العنصر الرابع الذي هو النار وسأذكر كيفية اصلاح النار للعناصر الثلاثة الآخر اذا هي فسدت معاً أو فسد أحدها ونعت كيفية انحطاط شعاعها وحرها الى وجه الأرض ووصوله الى أرحامها لاجراج النبات وتوليدها أحجار المعادن ، وما في ذلك للحيوان والنبات من المنافع والنشوء ودوام الحياة ، ولما كانت النار ألطف العناصر طباعاً وأعلاها مكاناً وكانت في كفييتها حاوية لما دونها من العناصر الثلاثة ومستولية عليها وحاكمة فيها وجب أن يكون يستدرك اصلاح ما فسد منه غيرها وتلطيف ما كيف منها وغلظ ووجدناها بالحقيقة تفعل في ذلك فعلاً قوياً ، ويؤثر فيه تأثيراً حسناً » .

وينصح باستعمالها لتنقية الهواء بواسطة التدخين :

« وذلك انا لا نصل الى تلطيف الهواء الغليظ وترقيقه وتحليل الغلظ العارض فيه بغير ايقاد النيران في المجالس والمساكن وبالقرب من المراقد وباستعمال الدخن التي ركبتهما الأوائل وغيرها من الدخن المصلحة للهواء التي أتينا بذكرها آنفاً » .

أما المياه فيجب غليها ثم تصفيتها بالخزف المخلخل ، واذا كان فيه بعض التراب وغيره فتستعمل أدوية خاصة فيقول :

« وان يعنوا من ذلك باصلاح الذي تغتذي به أجسادهم وتترطب به أكبادهم اذ بالماء حياة كل حي ونمو كل نام من الحيوان والنبات والمعادن وليس اصلاح الماء الفاسد ممكناً بغير طبخه بالنار اذ النار بحرها تحلل ما فيه من الغلظ وتزيل عنه ما مازجه من فساد الهواء ... »

قال محمد : فأما اصلاح الماء الفاسد بالنار وكيفية عمله فسبيل من أراد اصلاحه بالنار أن يطبخه في أنية من النحاس المونك (١٧) أو من حديد البرام ... وسبيله أن يديم طبخه حتى يذهب منه الربع ثم ليبرد في أنية من جديد الخزف الرقيق المتخلل الأخير الكثير الرشح ... وينبغي أن نعلم أن أفضل هذا الماء المطبوخ المبرد وألطفه وأنفعه رشحه وهو ما رشح منه في أنية الخزف الجديد

المتحلل الأجزاء الدائم الرشح فليعتمد شرب ذلك منه ٠٠٠ فأما تصفية الماء الكدر فانه قد يحتال لتصفية الماء الطيب الخفيف اذا كان كدراً في أوقات المدود لأجل أنواع التربة التي يمر بها ويجري عليها بوجوه من العلاج فمنه ما يصفى بأن يلقى فيه اليسير من الشب الأبيض اليماني ، أو بأن يلقى فيه شيء من لب نوى المشمش أو قلوب اللوز المر مدقوقة أو اليسير من ملح الطعام مدقوقاً أو يلقى فيه شيء من خشب الساج فانه اذا ألقى في الماء الحلو الكدر أحد هذه الأشياء وحرك به تحريكاً جيداً ثم ترك ساعة زمنية فانه يصفيه ويروقه ويميز العنصر الأرضي منه بسرعة » .

وكل هذا صحيح برمته حتى يومنا هذا . وكأنما اكتشف مصفاة «شامبرلان» المبنية على تصفية الماء بالخزف على عدة طبقات .

المصادر

- ١ - Leclerc Lucien : Histoire de la Médecine Arabe — 1878 — T. 1 — P. 19.
- ٢ - القوصوني المصري : مدين بن عبد الرحمن - قاموس الأطباء وناموس الألباء - مصورات مجمع اللغة العربية دمشق - ١٩٧٩ - ج ١ ص ١٦ .
- ٣ - ابن رضوان : علي - كتاب في دفع مضار الأبدان عن أرض مصر - مخطوطة دار الكتب المصرية . الفصل الحادي عشر .
- ٤ - التميمي أبو عبدالله - محمد بن أحمد بن سعيد الحكيم المقدسي ثم المصري التميمي . مادة البقاء في اصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء - المكتبة المارونية بحلب . مخطوطة ورقة ٥٦١ .
- ٥ - ابن سينا : الحسين بن علي - القانون - طبعة بولاق - اوفست بغداد ج ٣ - ص ٦٤ - ٦٦ . وطبعة روما سنة ١٥٩٣ المقالة الثانية من الفن الأول ص ٣٤ - ٣٥ .
- ٦ - المصدر رقم ١ ص ٢٧ .
- ٧ - الرازي : أبو بكر محمد بن زكريا - الحاوي - حيدرآباد الدكن - ج ١٧ ص ٢ - ٣ .
- ٨ - الرازي : ج ١٧ - ص ١٤ .
- ٨ - مكرر - الرازي حاوي - ج ١٧ - ص ١٥ .
- ٩ - الرازي ج ١٧ - ص ٢٣ - ٢٤ .
- ١٠ - المصدر رقم ٥ ج ٣ - ص ١٢١ .
- ١١ - المصدر رقم ٧ ج ١٧ ص ٤ .
- ١١ - مكرر - ابن خلدون - المقدمة - بيروت - ص : ٢٣٩ .
- ١٢ - البغدادي : عبد اللطيف موفق الدين محمد - كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والعائنة بأرض مصر - طبعة المجلة المصرية بلا تاريخ - ص ٦٥ - ٦٨ .
- ١٣ - يقال : افلت فلان بجريعة الذفن أي نجا بعد اذ اشرف على التلف . (المجلة)
- ١٤ - يقال : « افلت وله حصاص » مثل يضرب لمن نجا تحت رعدة شديدة . (المجلة)
- ١٥ - أي القليل اشادة الى الحديث : « لا يموت لمؤمن ثلاثة اولاد وتمسه النار الا تحلة القسم » . (المجلة)
- ١٦ - Walker Kenneth : Histoire de la Médecine — Bruxelles — 1962 — PP. 97-98
- ١٧ - المونك اي المطلي بالآناك وهو الأسرب اي التصدير ونقول في العصر الحاضر الميتض . (المجلة)